عصر الدولة السعدية

بـ التاريخ الحضاري (ج1)

أـ نـظم الـــــدولة:

- **المـــــلك:** كان لقب **الأمير** أول ما اتخذه السعديون من ألقاب، ثم تلقبوا ابتداء من محمد الشيخ المهدي **بالخليفة،** واستصدروا الرسائل بلقب أمير المؤمنين. و**توسعت** الدولة بالتغلب بعيدا عن النفوذ العثماني ، لتصير إمبراطورية في عهد المنصور. واتخذوا مراكش **عاصمة** لهم لقربها من ناحية السوس. وكان من أوائل أعمال الملوك السعديين **اعتقال** بعض أقاربهم خشية تمردهم، ثم **تفريق** المال على العسكر والفقهاء والمساكين، وتعيين ولاة جدد، وتلقي **البيعة** مراسلة وحضورا. واتخذوا **الألقاب** السلطانية كالقائم بأمر الله... واتخذوا **نوابا** عنهم في المدن الكبرى، من أمراء الأسرة، حملوا لقب خليفة. واتخذ المنصور **الديوان** أو مجلس الملأ، وهو مجلس اجتماع الوزراء والمستشارين والفقهاء والقواد والوجهاء، ولعله مقتبس عن العثمانيين.

وكان عدد **موظفي** الدولة كبير على حسب اختصاصهم، وبلغ عدد **حرس** السلطان الخاص أحينا خمسون ألف رجل. ونقلوا **عوائد بلاطهم** الداخلية عن الوطاسيين من طريق العريفة بنت خجو. ومما استحدثوه اتخاذ **المظلة** عند الخروج للاحتماء من عوارض الطبيعة. واتخذ المنصور لخرجاته **السياج،** وهو فسطاط كبير يمكن فكه يتألف من عدد كبير من الحجرات والحواجز.

وظل **جهاز الدولة** (المخزن) على سابقيه يتألف في أساسه من الوزير والحاجب وقاضي الجماعة، إلى عدد كبير من الكتاب، وكان أكثرهم من أهل السوس.

وأسسوا نظام **ولاية العهد؛** الذي كان أهم أسباب الاضطراب داخل الأسرة الحاكمة، لتنافسهم عليه، وتدخل نساء القصر في مرشحيه، ولم يكن لولاية العهد ضابط في الأحقية، مما زاد الأمر اضطرابا. وحاول المنصور أن ينظم حال ولي العهد بأن جمع له وظائف وخدم وأعوان كما للسلطان. واستحدث أيضا بأن جعل **للمبايعين** للسلطان أداء اليمين على المصحف وصحيحي البخاري ومسلم.

- **الوزارة والحجابة والكتابة**: سار السعديون على **نظم المرينيين** والوطاسيين، وتميزوا بأن كانوا في البدء يعينون كبار **ولد السلطان** وزراء لهم. واختلفت **أحوال** الوزراء على اختلاف طباعهم، فكانوا يكلفون أحيانا بقيادة الحروب كالوزير محمود باشا، ولم تظهر لهم وظائف محددة. وكان لأبناء الملوك الكبار وزراء أيضا. أما **الحجاب** فلم يختلف دورهم عن سابقيهم، وكان بعضهم من **العلوج** المسلمين.

أما **الكتاب؛** فكانوا يتخيرون عادة من **ذوي الثقافة** الواسعة والأسلوب المتين والقدرة الإنشائية، ومن أبرزهم ابن الغرديس التغلبي من الكتاب المؤرخين النسابة (ت 1020هـ). وقد نظم المنصور أوقاتهم، وكان لهم **رئيس** يرجعون إليه، ومن أشهرهم أبو فارس عبد العزيز الفشتالي الذي لقب بوزير القلم الأعلى. واخترع المنصور **"شيفرة"** من حروف خاصة لا يعرفها إلا كبار الدولة، خاصة في المراسلات. ولهم تقاليد في **المراسلات،** منها أنهم لم يكونوا **يوقعون** بأيديهم عليها، باستثناء المعتصم. وكثيرا ما **يختمون** رسائلهم بعبارة "توكلت على الله وحده". وظهر لبعض السلاطين كتابا **غير مقتدرين** تجلت بهم الركاكة والأسلوب العامي في مراسيلهم. واستعملو في مراسيلهم لغات عدة، وفي أواخر عهدهم استعاضوا **بالطابع** عوض الإمضاء.

- **القـــضاء:** لعب **دورا** مهما في هذا العصر، فكانت للقضاة مواقف سياسية شجاعة. وبقي منصب **قاضي الجماعة** في المدن الكبرى أهم المناصب في الدولة، وكان من أشهرهم أبو القاسم الشاطبي. وكانوا يتميزون في الأغلب **بثقافتهم** الأدبية فضلا على العلمية. واستحدثوا منصب **صاحب المظالم،** لتقبل الشكايات واستئناف الأحكام، وإن كان منصبا إداريا أكثر منه قضائيا، وكان منصبا **مهما** يعادل منصب الوزير والحاجب. وكان **مجلس المظالم** يترأسه السلطان ويشترك فيه الفقهاء والقضاة والمفتون كأعلى سلطة قضائية. وكان المنصور يجلس يوميا تقريبا للنظر في المظالم بمقصورة مسجد القصبة بمراكش.

وكان الملك يعين **المفتين،** وأشهرهم مفتي فاس محمد القصار القيسي الغرناطي (ت1012هـ)، ومهمتهم النظر في القضايا المستعصية التي لا يسع القاضي النظر فيها. وكان للقضاة **موثقون** أو عدول يساعدونهم. وبقي **اختصاص القضاة** في المسائل الشرعية، وألحقت الجنح والمدنية إلى الولاة.

- **العـــمال والولاة والجـــيش:** تولت رئاسة الأقاليم عمال أو نواب للسلطان لقبوا **بالخليفة،** تحتهم جماعة من القادة والبشاوات. وإن كانت وظيفة **الباشا** أكثر تعلقا بالجانب العسكري. وتميز السعديون بأن وضعوا على رؤوس الأقاليم **أبناءهم،** خاصة المنصور. وكانت أدوار **القواد** إدارية

وعسكرية. واستعانوا في إدارة **أقاليم السودان** فضلا على قادتهم بأمراء السودان، الذين باشروا سلطة رمزية بإشراف القواد، على أن الجيش بدا يعين قواده مباشرة ابتداء من 1021هـ.

واختصت مدينتي **الرباط وسلا** باستقلال ذاتي مذ عهد زيدان (1023هـ/1614م)، وبسلطة سلطانية رمزية، وكان سكان قصبتها ينتخبون قائدهم لمدة سنة وينتخبون ديوانهم، وكان القاضي يعينه السلطان.

أما **الجيش**؛ فاعتمد السعديون على عصبية **المصامدة** في بنائه، وضموا إليها غيرها من **القبائل**، فضلا على فرق من الأتراك، ثم الأندلسيين (جيش النار). وكان **المعتصم** قد جمع جيشه على **ستة أصناف** هي: الأتراك والعلوج، ثم عسكر الأندلس، ثم بربر الشمال وسماهم عسكر العجم، ثم عرب الشراقة من حشم وبني عامر وغيرهم، ثم عسكر الغرب من سفيان ومالك والخلط، ثم عسكر الحوز الشبانات وأولاد جرار ومطاع. وقد أعاد **المنصور** تنظيم الجيش وفق أحدث التنظيمات العسكرية، وخاصة فيما تعلق **بحرسه الخاص** الذي وزعه على ستة وظائف وهم: البياك، والسلاق، والبلبردوش، والشنشرية، والقبجية، والشواش. ومن جهة أخرى كانت هناك **ثلاث فرق** للحرب، وثلاث أخر لخدمة السلطان. واستعملت **المصطلحات التركية** في رتب الجند من: ألأودباشي (ملازم)، البلكباشي (قبطان)، الكهية (كولونيل)، الشاوش (مرتب الصفوف)، الباي (قائد القواد)، الطوبجي (المدفعي). وقلما أسند قيادة الحملات الهامة للعناصر البربرية أو العربية، بل أغلبها كان بقيادة الأتراك والعلوج خاصة.

وكان **علم الدولة** الأكبر يدعى باللواء المنصور، وهو أبيض اللون يرفع على رأس الملك من خلف، وهناك رايات أخرى مختلفة الألوان لكل فرقة من الجيش، وبياض اللواء يعود إلى الدولة الموحدية. كان الشعب يساهم في **نفقات** الحرب كغزو السودان، ثم جعل المنصور رزق الجند من خزانة الدولة. وقام المنصور بإنشاء **الاستحكامات** والتحصينات وجعلها صالحة لاستخدام المدافع.

- المالية: قام أبو عبد الله القائم بفرض **ضريبة** مخففة على من بايعه لتزويد جيشه، وكانت بيضة على كل أسرة، ثم معها درهم وسمى ذلك **بالنائبة**. وبقي معمولا بهذا إلى أن جاء **المنصور** فتضاعفت معه الضرائب، ثم تفاحشت بعده. وزاد عليها المنصور **ضرائب أخرى**، ثم حولها عينية بعد. ومن **موارد المال** في عهده: الخراج، وأموال الفداء، ودخل السودان، ومستفاد مصانع السكر، والتجارة الخارجية، والجمرك، والغرامات على الثوار.

وكان **الجباة** يختارون من الملك غير خاضعين لسلطة العمال، وكانوا عادة من أهل **الثراء**. وأسندت أمانة **بيت المال** عادة لدوي العلم بالفقه والفرائض والحساب مع النزاهة وحسن التدبير.

وكانت **عملتهم** أواسط القرن العاشر من الذهب والفضة، ووحدتها الأساسية **الريال الذهبي**. ووجدت **ثلاث وحدات**: المثقال (10 ريالات)، نصف المثقال (05 ريالات)، ربع المثقال (1 و¼ ريال). ولم تكن قطع العملة على نفس **الوزن** دائما. كانت **مراكز** ضربها: مراكش، وفاس، وكتاوة (درعة)، وسجلماسة، ودرعة، والسوس والمحمدية. وقد ساعد **ذهب السودان** في ضرب العملة المغربية، وذكر أن **جؤذر باشا** عاد من السودان بثلاثين حملا من التبر.

بـد الـــــمجتمع:

-**السكان**: كان هذا العصر عصر توافد **المورسكيين**، وقد نزلوا بالمغرب الأقصى بمدن تطوان وسلا والرباط. وكانت عنصرا نشطا ثريا، أدخلوا معهم زراعات وصناعات جديدة، وساهموا في التجارة، وخاصة في الجهاد البحري. وحل بمراكش فئات **العلوج** من مختلف الأجناس، وكان أكثرهم من الإسبان، وقد نشروا لغتهم بها، وكانوا عونا في فتح السودان، ولهم مكانة في مراكش سببت لهم بغض المغاربة وغيرهم. وكثر عدد الأسرى **النصارى** بمراكش خاصة، وبلغوا بها أوائل القرن العاشر حوالي الثلاثة آلاف، وكانوا يفادون أو يعتنقون الإسلام للتخلص من العبودية، وقد كان لهم حي خاص بهم، للمتزوجين منهم خاصة.

وكانت **مراكش** في ذلك الوقت حسب السائح الفرنسي جان موكي أكبر من باريس في عدد السكان. وكان يسكن قرب مراكش قبائل الرحامنة من بني معقل والشبانات، وقد ساهموا في تعريبها. وعاش **بدرعة** عدد من السودان المجلوبون والمهاجرون. واستقر **بتارودانت** عدد كبير من اليهود، قدرهم مارمول بنحو الألف.

تعرض سكان المغرب في القرنين العاشر والحادي عشر لعدة **كوارث**، من مجاعات وأوبئة وأخرى؛ كوباء سنة 1104هـ الذي كان يخرج من الموتى يوميا نحو ألف من فاس وألفين من مراكش، والزكام الوبائي (الكحيحة) سنة 987هـ، الذي مات منه خلق، ورافقه مجاعة مهلكة. ولذا اهتم السعديون ببناء **المشافي**، فبنا الغالب مستشفى كبير بمراكش وأوقف عليه أوقافا، وبنا المعتصم للأسرى المسحيين مستشفى خاصا.

-**اللباس**: بقي لباس البياض شعارا للمغاربة مأخوذ عن الأندلسيين منذ القدم، واستعملوا اللون الأزرق في البرانس حتى أصبح من الألوان الوطنية. واتخذت الدولة الزي التركي كلباس للعسكر، وكان المعتصم يتزي بزيهم أيضا؛ واتخذ المنصور زيا خاصا أدخل فيه القفطان والمنصورية، ووافقه فيه الملوك والفقهاء. وغطوا رؤوسهم بطواقي حمراء أو قلانس، وكانت نعالهم عالية. وكان للنساء

لباسهن، وكن يتخذن حلي الذهب والفضة، والأقراط والقلائد، ويعلقن عليها الريال الإسباني، وأساور الأرجل.

-**المرأة**: كانوا محافظين جدا في نسائهم، لكثرة الأجانب، وقد كان أهل سلا يرفضون مساكنة المورسكيين أو إكراءهم الدور والأراضي الزراعية لسفور نسائهم. وقد ساهمت النساء في المجتمع، وظهر منهن عالمات وصالحات كعائشة بنت أم احمد الإدريسية، ومثل العريفة بنت خجو، وعودة الوزكيتية أم المنصور، وكان لهن دور في السياسة والعمران. وفي هذا العصر ابتدأت النساء الشعبيات في صناعة الزرابي التركية.

-**الحفلات والأعياد والعادات**: كان أهم الاحتفالات الاحتفال **بالمولد النبوي**، وكان أول من سن ذلك بنو العزفي بسبتة ثم عممه المرينيون، وجعله المنصور حفلا عظيما له فيه تقاليد، ويقام احتفال آخر في اليوم السابع كيوم عقيقة النبي صلى الله عليه وسلم. وكان المنصور يحتفل أيضا بعيد **عاشوراء** ويختن فيه العديد من أطفال الطبقة الشعبية، وتوزع عليهم الملابس والأغذية ومبلغ من المال. وكانوا في شهر **رمضان** يقوم كبير القضاة بقراءة صحيح البخاري إلى أن يختمه يوم سابع العيد.

وعني السعديون **بالطرب** الأندلسي، فشجعوه ونشروه، واستنبط الحاج علي البطلة الفاسي طبع الاستهلال. وسطع نجم المغنين في هذا العصر، خاصة أهل الملحون الذي كان يستجيده المنصور.

وظهر في هذا العصر **التبغ**، أدخله سنة 1001هـ جماعة من السودان، وقد لقي استحسانا ورواجا عند العامة، واستهجانا وتحريما من الفقهاء والمفتين. وابتدءوا في تعاطي **لعبة** "الكارطة"، ولا يعرف أصلها، والمرجح أنها من بلاد الصين أو الهند، وأدخلها عرب إسبانيا.

-**الحياة الدينية**: كان العصر الوطاسي ومعه السعدي عصرا تطورت فيه **الحركة الصوفية** من حركة دينية اجتماعية إلى حركة ذات نفوذ سياسي كبير. وعلى الرغم من أنها ساندت السعديين في إنشاء دولتهم إلا أنها لاقت منهم الكثير من البطش؛ مع مساهمتهم في حركة الجهاد خاصة بعد المنصور، بل وأقامت حركات منازعة للدولة. ولقد كانت **جزولة** بالسوس مخزن الدولة السعدية، ثم تحولت في نهاية عهدها إلى أكبر الثوار ضدها.

وكان للطرق الصوفية **نفوذ** على العامة كبير جدا، ونسبت إليهم كرامات وخرافات كثيرة. واستتبع هذا انتشار **للزوايا**، التي لعبت دورا تعليميا، ومنها: الزاوية الفاسية، والزاوية الناصرية، والمصلوحية، والجزولية، والدلائية، والعيساوية.

وظهر في هذا العصر **المذاهب** الدينية الفاسدة، كفرقة الشراقة (اليوسفية)، المدعين في إمامهم العصمة وحتى النبوة. وظهر ابن أبي محلى مدعي المهدية.

وحظي **اليهود** عند السعديين، ومنهم أسرة بالاش، لعبت دورا أساسا في علاقات المغرب الاقتصادية مع أوربا. وحظيت أحياؤهم بحماية السعديين مباشرة؛ فامتاز عهدهم بالتسامح الديني، وقد تعايشوا مع المجتمع الاسلامي بسلام. وكان لهم بالمغرب محاكمهم الخاصة وسجنهم الخاص. وتكاثروا حتى بلغ عددهم في عهد المنصور بمراكش الستة آلاف، وعلى كل قد عرفوا أجمل حقبة في تاريخهم زمن السعديين، كما يقول دوفردان.

يتبع...